[توجيه حديث كلمتان خفيفتان على اللسان . . الخ]

« بسم الله الرحمن الرحيم »

قال الشّيخ الإمام العالم العلامة المحقّق كمال الدين محمد الشّهير بابن الهمام الحنفيّ[1] ـ رحمه الله تعالى :

الحمد لله ، اللهم صَلّ على سيّدنا محمد عبدك ونبيّك ورسولك محمد وآله وسلم .

وبعد ، فقد دخلتْ عليّ امرأة بورقة ذَكَرتْ أن رجلاً دفعها إليها يسأل الجواب عمّا فيها ، فنظرت فإذا فيها سؤال عن إعراب قوله صلّى عليه وآله وسلّم : ﴿ كلمتان خفيفتان على اللّسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرّحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان

---

(١) هو: محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود السِّيواسيّ ثم الإسكندريّ العلامة كمال الدين بن الهمام الحنفيّ .
ولد بقرب سنة ٧٩٠ . ومات يوم الجمعة سابع رمضان سنة ٨٦١ هـ
ومن تصانيفه : شرح الهداية ، والمسامرة في أصول الدين ، وكراسة في إعراب : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم . انظر ترجمته في البغية ١/١٦٨ .

العظيم ﴾ : هل كلمتان مبتدأ وسبحان الله الخبر ، أو قلبه ؟[1]

وهل قول من عيّن « سبحان الله » للابتداء لتعرّفه صحيح أم لا ؟

وهل قول مَنْ ردّه للزوم سبحانَ الله النّصب صحيح أم لا ؟

وهل الحديث مما تعدّد فيه الخبر أم لا ؟

فكتب العبد الضّعيف على قِلّة البضاعة ، وطُول التّرك ، وعجلة الكتابة في الوقت ما نصّه :

الوجه الظّاهر : أن « سبحان الله » إلى اخره الخبرُ ، لأنه مؤخر لفظاً ، والأصل عدم مخالفة اللفظ محلّه إلا لموجب يوجبه ، وهو قبيل الخبر المفرد بلا تعدّد ، لأن كُلاً من سبحان الله مع عامله المحذوف الأول والثاني مع معموله الثاني إنما أريد لفظه . والجُمَل الكثيرة إذا أريد لفظها فهي من قبيل المفرد الجامد، ولذا لا تتحمّل ضميراً، ولأنه محط الفائدة بنفسه بخلاف عكسه، فإنه إنّما يكون محطّها باعتبار وصفه، ألا ترى أن في عكسه يكون الخبر: «كلمتان».

ومن البيّن أنّ ليس متعلق الغرض الإخبار من النّبي صلّى الله عليه واله وسلم عن سبحان الله الخ بأنهما كلمتان ، بل بملاحظة وصفه ، أعني « خفيفتان » ، «ثقيلتان » ، « حبيبتان » ، فكان اعتبار

(١) قلبه: أي عكسه.

سبحان الله الخ خبراً أولى ، فهو مثال : «هِجّيري[١] أبي بكر: لا إله إلاّ الله » ونحوه مما أوردوه مثالاً للإخبار بالجملة التي أريد لفظها .

وأمّا منع كونه خبراً أو مبتدأ بسبب لزوم نصب « سبحانَ الله » فإنما يصدر ممن لم يفهم معنى قولنا : إنما أريد بالجملة لفظها ، وعلامة إعراب الخبر في مثله وهو الرّفع في محلّه .

فالحاصل أن كُلاًّ من حيثُ العربيَّة يجوز .

[٣ / ٢٠٧] وأما من حيث / الأولوية بالنّظر إلى المعنى ، فكلمتان مبتدأ مسوّغ بالأوصاف المختصة ، ولفظ سبحان الله وما بعده خبرُهُ .

وأمّا جعل « سبحان الله » معرفة ، فإن أراد به حال كونه مراداً به معناه فصحيحٌ ، وتعريفه بالإضافة وهو ما إذا كان المتكلّم ذاكراً مسبّحاً .

وإن أريد به حال كونه أريد به مجرّد لفظه على معنى أنّ الكلمتين الموصوفتين بتعلّق[٢] حبّ الله تعالى بهما ، هاتان اللّفظتان اللّتان هما - سبحان الله - صادرتان[٣] من مُريدٍ معناهما وهو تنزيه الله تعالى فـ«لا» ، فإن أنواع المعارف محصورة ، وليس هو منها ، إذا لم يرد بهذا التّقدير

(١) في سيبويه ٢/ ٢٢٨ : الهجّيري: كثرة الكلام والقول بالشيء.
وروى اللسان (هجر) عن التهذيب : هجّيري الرجل : كلامه ودأبه وشأنه . وهذا يتفق مع هذا المثال ؛ ويكون معناه : شأن أبي بكر وكلامه التسبيح بذكر لا إله إلاّ الله .

(٢) في ط : « يتعلق » بالياء (٣) في ط : « صادرتين » بالنصب .

معنى الإضافة ، ولا حصول[1] النِّسبة التي باعتبارها يحصل التّعريف .

فإن ادّعى أنه من قبيل العِلْم بناءً على أنّ كلَّ لفظ وُضِع ليدل على نفسه ، كما وضع ليدُلّ على غيره كما ذكر ابن الحاجب فَلْيَعْلَمْ أنه على تقدير صِحّة هذه الدّعوى لم يُعْطِ لهذا الوضع حُكْمَ الوضع للّدلالة على غيره ، ولهذا لم يقل أحد بأن كُلّ لفظٍ مشترك وهو لازمٌ من جَعْلِ كُلّ لفظ وُضِع ليدُلّ على نفسه ، كما وُضِع ليدُلّ على غيره ، فَعُلِم أن إعطاء اسم المعرفة والنكرة والمشترك وسائر الألقاب الاصطلاحيّة باعتبار الوضع للّدلالة على غيره .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دفعت الورقة للمرأة ، ثم بعد أن مضى على هذا نحوٌ من خمسة أشهر سمعت أن بعض الأخوان ذهب بجوابي هذا مقترناً بثلاثة أجوبة لأهل العصر مخالفة لجوابي .

وجواب رابعٌ للذّاهب إلى بعض ملوك الدنيا لمّا كان من أهل العلم والفهم في الاصطلاحات لِيُوقف به على خطأ المخطىء ، وإصابة المصيب .

وحاصل ذلك اتّفاقهم على أن الوجه الذي رَجّحته جعلوه متعيّناً

---

(١) في بعض النسخ : « ولا خصوص » مكان : « ولا حصول ».

بناء على أنّ مَحطّ الفائدة يتعيّن أن يكون : سبحانَ الله وبحمده إلى آخره .

ومنهم من ذكر أوجهاً لإبطال قلبه .

منها : أن سبحان الله لزم الإضافة إلى مفرد فجرى مجرى الظروف ، والظرف لا يقع إلاّ خبرًا ، ولأنه ملزوم النصب ، ولأنه مركّب من معطوف ومعطوف عليه .

[٣ / ٢٠٨] وهذه الأوجه الثّلاثة يستقلّ بدفعها على ما في بعضها من / التّحكّم ما ذكرناه من أن الكلام الواقع خبراً إنما أريد به لفظُهُ .

ومن أمثلتهم في ابتدائية المتعاطفين إذا أريد مجرّد اللفظ « لا حول ولا قُوّة إلا بالله كنزٌ من كنوز الجنة[1] » .

ومنها : أن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم كلمةٌ ، إذ المراد[2] بالكلمة في الحديث اللّغوية . فلو جعل مبتدأ لزم الإخبار عما هو كلمة بأنه كلمتان .

ولا يخفى على سامع أن المراد : اعتبار سبحان الله وبحمده كلمة ، وسبحان الله العظيم كلمة ، فالمجموع كما يَصِحّ أن يعبر عنه بكلمة كذلك يصح أن يعبّر عن كل جملة منه بكلمة ، غير أنه لما كان كُلٌّ من الجملتين ، أعني سبحان الله وبحمده ، وسبحان الله العظيم مما

(١) انظر مسند ابن حنبل ٥/١٥٦
(٢) في ط : «المرد» . تحريف

يستقلّ ذِكْراً تاماً ، ويفرد بالقصد إليه وبقوله اعتُبِر كلمةً ، وعبّر عنهما بكلمتين .

على أنّ ما ذكره لازم على تقدير جعل « سبحان الله » الخبر كما هو لازمٌ على تقدير جعله مبتدأ ، لأنه كما لا يصحّ أن يخبر عما هو كلمة بأنه كلمتان ، كذلك لا يخبر عمّا هو كلمتان بما هو كلمة .

فإن الحاصل على تقدير كون « كلمتان » المبتدأ أن الكلمتين اللّتين هما كذا وكذا هما الكلمة التي هي سبحان الله وبحمده،سبحان الله العظيم .

وبجوابنا اندفع عن الشّقين ، لا بما قيل في جوابه : إن سبحان الله الخ تضمّن عطفاً ، فيقوم مقام المتعدّد ، ويخبر عنه بكلمتين .

وهذا إن أريد به الكائن في(وبحمده)،فهو على تقدير كونه خبراً مَحْضاً ، وإلاّ فإنْ جَعل « سبحان الله » نُقِل إلى الإنشاء ، وإن كان إخبارًا صيغة كصيغ العقود كبِعْتُ وبحمده مع متعلّقه خبراً لم يكن عطفاً عليه ، لأنه إنشاء .

وعلى تقدير حذف العاطف أي وسبحان الله ، وهو قليل ومختلف فيه .

وعلى تقدير صِحّتهما لا يندفع السؤال ، فإن السائل قال : المراد بالكلمة اللّغوية ، فالمجموع من سبحان الله إلى آخر الكل كلمةً .

ومعلومٌ أن وجود العطف في أثناء الكلام الكثير لا يمنع من إطلاق لفظ كلمة عليه ، أترى قولنا له : كلمة شاعر ، يعنون القصيدة ، لا يصحّ إلا أن تكون قصيدةً لم يقع في مجموعها عطفٌ ، أنّى يكون هذا ؟

وحينئذ فالمجموعُ من المتعاطفين كلمةٌ فلا يخبر عنه بأنه كلمتان .

ويعود السؤال فلا يفيد إلاّ أن يعود إلى جواب الفقير - إن شاء الله تعالى . / [٣/٢٠٩]

ومنها : أنّ جعل المبتدأ : « سبحانه الله » الخ يفوّت نكتة ،وهي إرادة حصر الخبر في المبتدأ. وأنت لا يخفى عنك أنّ الحصر إما أن يكون بالأداة ، او بتقديم الخبر أو المعمول ، والتّقديم إنما هو في جعل «سبحان الله وبحمده» المبتدأ، وكلمتان الخبر، فيصير من قبيل: «تَميمِيٌّ أنا» لا في جعل «كلمتان» المبتدأ، و«سبحان الله» الخبر، وهو مراده، إذ لا تقديم فيه .

وإذا لم يكن تقديمٌ فإنما يجيء الحصر في المعرّف بلام الجنس للاستغراق لزوماً عقليًّا، كقولنا: «العالم زيد» إذا جعلنا العالم مبتدأ»، و«اليمين على المدَّعَى عليه»، فيفيد أن لا يمين على غيره بسبب جعل الكل عليه، لأنه ليس وراء الكُلّ شيء .

وكأنه ذهب عليه أن المذكور في الحديث الكلمتان الخفيفتان الحبيبتان: سبحان الله الخ . وليس مثله بعجيب على الإنسان كما

ذهب على الذاهب بجوابي، ليرى غلطه أنّى جعلت كون الفائدة في جعل سبحان الله مبتدأ باعتبار وصف الخبر لا نفسه وجهاً لردّ ابتدائية سبحان الله الخ، فأورد عليه لزوم عدم صِحّة: «زيد رجل صالح»

وأنا لست من هذا، وإنّما جعلته كما هو صريح في كتابتي: وَجْه مرجوحيّته، وأولويّة كونه خبراً، فليرجع إلى نظر الكتاب، غير أن النفس إذ ملئت بقصد الرّدّ يقع لها مثل هذا السّهو في الحسّ.

وإذا كان المذكور في الحديث كلمتان بلا تعريف جنس استغراقيّ لم يكن حصر، بل المراد الإخبار لسبحان الله وبحمده الخ عن الكلمتين الموصوفتين كما ارتضاه الكاتبون، وجعله العبد الضعيف أولى الوجهين، أو عن سبحان الله وبحمده بأنهما حبيبتان إلى الرّحمن ثقيلتان في الميزان.

والمعنى: أنّ اللّفظ الذي عهدتموه وتقولونه، وهو سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم له من المقدار عند اللهّ أنهما كلمتان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن.

ولا يخفى أنه لا يراد مطلق ثقلٍ ما، ومحبّةٍ ما، لأن ذلك معلوم للمؤمنين غير مجهول لهم في كُلّ ذكر لِلّه.

هذا وغيره أنه كذلك، فلو أريد ذلك لم تكن الجملةُ الخبريةُ كلّها مجدّدةً فائدةً عند السّامعين سواء جعلت سبحان الله مبتدأً أو خبرًا، بل هي حينئذ بمنزلة: النار حارّة، ونحوه.

ومثله يجب صون كلام بعض البُلغاء عنه ، فكيف بالنبي صلى
[٣ / ٢١٠] الله عليه وآله وسلم؟ سواءٌ / جعلت تجدّد الفائدة شرطاً لكون الجملة كلاماً أو لم تجعل، فإن الذي لا يشرطه لا يقول: إنه قد حصل فائدة تامةً إلا أنه لا يشترطها في مُسمّى الكلام اصطلاحاً. وحينئذ وجب كوُن المراد زيادَة ثقل، وزيادَة مَحبّة مِمّا لا يلزم على كل مؤمن يعلم أن للذّكر ثواباً

وإذا ظهر أن كُلاً من ثقيلتان، وحبيبتان، وسبحانَ الله وبحمده يصلح مَحّط فائدة يكون بها خبراً ، ويزداد جعل سبحان الله مبتدأ قدّم خبره بنكتة بلاغيّة لأ جلها قُدّم الخبر وهي التّشويق إلى المبتدأ . وكلمّا طال الخبر حسن هذا النوع ، لأنه كُلّما طال بذكر الأوصاف ازداد الشّوق إلى المحدّث منه بها كما هو في الحديث الكريم ، حيث قال: «كلمتان خفيفتان على اللّسان، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرّحمن » فإن النفس كَثُر تشوُّقُها بذلك إلى سماع المحدّث عنه بها، فلم يجىء سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم إلاّ والنّفس في غاية الشوق إلى سماعه فهو مثل قوله:

٦٢٩ =ثلاثةٌ تُشْرِق الدّنيا بِطَلْعَتِهم

شَمْس الضُّحى وأبو إسحاقَ والقمرُ[1]

(١) انظر العمدة ٢/ ١٣٩ ، وقد نسب هذا الشاهد إلى محمد بن وهب وبعده :
يحكى أفاعيله في كلّ نائلة الغيث واللّيث والصمصامةُ الذّكَرُ

وهذا ما ذكره السّلف الّذين أعربوا «سبحان الله» مبتدأ.

ولم يَرْتَضه مَنْ وَجّه سَمْعَهُ من أهل عصرنا بمثل ما أسمعتك ، وأستغفر الّله من شغلي سمعك بمثله.

ولولا ما فيه من كون محطّ الفائدة فيه يكون باعتبار وصف الخبر كما أسلفته في الجواب لكان أولى من جعل «كلمتان» مبتدأ.

وعسى أن يكون رجوعي عنه أولى، لأن مراعاة مثل هذه النكتة البلاغية هو الظّاهر من تقديم الخبر حينئذ، فلا يعدل عنه بعد ظهور بطلان انحصار محطّ الفائدة في [1] سبحان الله

وبهذا تمّ ما يتعلّق بالحديث.

بقي أنه وقع لي نفي كون (سبحان الله) إذا أريد لفظه معرفةً ، لأن المعارف أنواعها محصورة ، وليس هو منها مسطور في أصل جوابي فارجع إليه.

ثم قلت : فإنْ ادّعى أنه يكون من قبيل العلم بناءً على أن كل لفظ وُضِع ليدُلّ على نفسه، كما وُضِع ليدُلّ على غيره، فَلْيعلَمْ أنه على تقدير صِحّة هذه الدّعوى لم يُعْطِ لهذا الوضع حُكْمَ الوضْع لِغَيره ، ولذا صرّح بأنه لا يصير كل لفظ مشتركاً / وهو لازم من وضع كُلّ لفظ ليدُلّ [٣ / ٢١١ -

(١) «في» سقطت من ط، تحريف، صوابه من النسخ المخطوطة.

على نفسه، وَوُضِع ليدُلّ على غيره، فاعترض ذلك الأخ بأنه من قبيل العلم.

قال الرّضى : وهو عندهم من قبيل المنقول لأنه نقل من مدلول هو معنىً إلى مدلول هو اللّفظ.

ولا يَخْفى عليك أن حاصل هذا الاعتراض لم يَزد على نسبة ما ذكرت أنه مِمّا يقال ، ولم أرضه إلى بعض النحاة أنه قال، وخفى عليه أنى أنقله عن خَلْقٍ ، غير أن لي فيه بحثاً مكتتباً من نحو عشرين سنةً مع القائلين به، فبناءً عليه ذكرت ما ذكرت.

وحاصل ذلك البحث كتبته عند نقل المحققّين قَوْلَ ابن الحاجب في «المنتهى»[١]: «أكثر ما يطلق اللّفظ على مدلول مغايرٍ، وقد يطلق والمراد اللّفظ نحو زيد مبتدأ و(ز ى د)، لأنهمّ لو وضعوا له أدّى إلى اللّبس[٢] ولو سلم فنفسه أولى، يعني لو سلم أنْ لا يلزم اللبس لو وضعوا له[٣] . فإذا أمكن أن يطلق ويراد به نفسه كان أولى» . انتهى .

وذكر هنا أن موضوع فخلف[٤] لي فيه هذا وهو أن الحاجة هنا ليست إلاّ إلى مجرّد التّعبير عن اللفظ، وقد حصل بنفسه، فإذا أمكن بطريق المجاز كان أوْلى ، لأنه بطريق الوضع يثبت به معنى

(١) صنف ابن الحاجب مختصراً في علم الأصول ، وآخر أكبر منه سماّه « المنتهى » انظر : روضات الجنات/ ٨.

(٢) في النسخ المخطوطة : « التسلسل » مكان : « اللبس » .

(٣) سقطت كلمة « اللبس » من النسخ المخطوطة .

(٤) في ط فقط : «فخلق» بالقاف

الاشتراك، والمجاز خيرٌ منه، ويتأنس هذا بأنا إذا قلنا : زيد كذا وكذا فقبل ذلك الخبر يتبادر إرادة معنى غير لفظ إلى أن يذكر المسند فيرى غير صالح إلا للفظ ، فيحكمُ به حينئذ بقرينة الملازمة للمسند فيتبادر[1] معنى على التّعيين من مجرد الإطلاق ظاهر في عدم تعدّد الوضع للمعاني المتعددة، لأن لازم ذلك بحسب الأصل، والغالب التردد والتّوقف، وقد أمكن جعله مجازاً علاقته الاشتراك في الصورة فيكون كإطلاق لفظ الفرس على المثال المنقوش في حائط.

فبناء على بحثى هذا معهم قلت في أصل جوابي : فليعلم أنه على تقدير صِحّة هذه الدعوى يعنى لو تنزلنا عن هذا ، وقلنا: إنه وُضِع لنفسه لا يُوصف باعتبار هذا الوضع بكونه معرفةً ولا نكرة، بل الألقاب الاصطلاحية إنما يوصف بها اللّفظ باعتبار الوضع للمعنى المغاير، لأن ذلك الوضع هو القَصْدِي.

وأما هذا الوضع / فقد صَرّح من قال به من المحققين بأنه ليس [٣ / ٢١٢] بوضع قَصْدىّ ، ولذا صرّح بأنه لا يكون اللفظ به مشتركاً . فلما تعدّد الوضع للمعاني المحتملة ، ولم يكن مشتركاً عُلِم أنه لم يعتبر في إطلاق الألقاب الاصطلاحية إلاّ الوضع القصدى ، ثمَ هذا لا ينفى تَعَيّن[2] المعنى والعلم به، لأن المنفّى الوصف الاصطلاحي وهو

(١) في ط : «فتبادر»

(٢) في ط : في النسخ المخطوطة : «تغير» مكان : « تعيّن » .

لا يقتضي عدم تعين المعنى ، أرأيت لو لم يُسَمّ كل نوع باسم خاص أصلاً كما كان عند العرب قبل حدوث الاصطلاح ، أما كان يصحّ مبتدأ؟ ؛ ولذا جعلنا « سُبحان الله » مراداً ، مجرّدُ لفظه مبتدأ مع نفي الحكم عليه بأنه معرفة ولا نكرة كما ذكرنا ، لأن صحة الابتدائيّة والحديث محدّث عنه إنما يقتضي تعيّن معناه كُلِّيًّا كان ذلك المفهوم أو جزئيًّا ، لا تسميته .

وكم نكرة تتعين بمعناها في الاستعمال فتصير كمعنى المعرفة لا يتفاوتان إلاّ في أصل الوضع . والله سبحانه وتعالى أعلم .